سباكي

قصة

بقلم مطاع صفدي

١ ـ العجاج

وسمعته ثانية يصرخ بعد كل ضربة من سوطه الاسود على جلدها المخملي :

ـ اللعينة .. تريد ان تكون جميلة بو حيرد .. جميلة الثانية ..

واغمضت عيني . لقد كان الانين فاضحا كل شيء . يدهم حواسي كلها . فلا حاجة اطلاقا لان ازيد الحس بالرؤية . وشعرت بارتخاء اليم في مفاصلي ، فاتكات على قيودي ... ودوت الحروف في اعماقي تلك التي تؤلف اسم جميلة بو حيرد ..

كان ذلك عشية انصرافنا من الجامعة ، وقد وقفت عند الباب الخارجي انا وصديقي « حسين » نجمع التواقيع من الزملاء احتجاجا على تعذيب جميلة بو حيرد بيد انصاف الرجال من الفرنسيين ، عندما رأيت سلمى مقبلة متمهلة فاترة ، تلوح بمحفظتها حسب ايقاع حالم في روحها ، ونسيمات المساء تحمل صمتا ورعشة وشرودا لقلوب الصبايا ، وقد خلت من هموم اليوم الدراسي .. توقفت عندنا قليلا ، تطلعت الى العريضة المزدحمة بالتواقيع . . وسقط نور المصباح على جبهتها الخمرية وقد غطت جانبها غرة كثيفة من الشعر الاسود القاتم .. وابتسمت وهي تحنو بنظراتها على شيء مبهم يبدو لها مني :

ـ لم تنته مشاغلكم بعد ..

ـ الا توقعين ..؟

ولوحت بالمحفظة جيئة وذهابا .. وصعدت بانظارها الى اعلى :

ـ لا ارى فائدة فيما تفعلون ..

وكاد حسين انيقذف بغضبه السريع في وجهها ولكني سارعت بالقول :

ـ على الاقل ياانسة سلمى نحن نبقي على مبادىء جميلة التي تتعذب اليوم من اجلها حية حارة في قلوبنا بهذا العمل الصغير ...

واطلقت آهة غريبة أدهشت صاحبي .. وسرحت ببصرها اكثر الى اعلى وغمغمت :

ـ ليتنا .. ليتنا نستطيع حقا ان ندرك عظمة تلك المبادىء .. نحن هنا ، لا لشيء سوى للتحسر .. ولامضاء التواقيع .

وكادت ان تمضي في طريقها لولا انني ناديتها :

ـ سلمى .. سلمى .. لماذا لاتساعدينا قليلا . تقفين لبرهة معنا .. ولا بد ان نجمع تواقيع اكثر ..

وغمغم حسين اخيرا :

ـ صحيح .. زين والله ، لن يبقى شاب في الجامعة الا وسيوقع .. معنا سلمى .!

وضحكنا للحظات . ولكن سلمى تمهلت قليلا قبل ان تقرر . ثم هزت محفظتها ، وارعشت غرتها بحركة سريعة من رأسها .. ومشت ، وخلفت وراءها عطرا غامضا عنيفا للشعر الاسود

وحشرج صوت حسين في اذني :

ـ أرأيت .. اتعتقد انها تهتم لمثل افعالنا هذه .. سلمى ليست من عالمنا ياصاحبي .. كف عنها ، والا صيرتك يوما اضحوكة لها في الجامعة .

واحترقت الرغبة في حلقي . لقد خمدت رعدتي ما ان تحركت تنورتها تنفض علينا نسمة عبقة انثوية ، كنت اخشى حقا لو انها انصاعت ووقفت الى جانبي . أكره ان احتمل ظل انثى . لست اريدها حقا .. انها تعذيب لذيذ لي .. جنتي التي لن ادخلها ابدا .

ـ يقولون انها تعشق فارسا مجهولا . لديها ثروة ياصاحبي من مال الاب والام ، ومن سيل المعجبين .. مامحل امثالنا في حياتها .. دعك منها .. انت تعدو وراء سراب ساخر .. اتذكر استاذ الاقتصاد .. لابد انها فتنت بشاربه الاشقر ، ولهجته العذبة في القاء دروسه . لقد سمعتها تقول له في نزهتنا السابقة مع الاساتذة : انك يادكتور تلقي شعرا ولا تلقي باحاديث مادية . ففحك الاستاذ الماركسي واجابها : ان القوانين الاقتصادية هي التي تعلم الشعر .! ومن ذلك اليوم وهي تجلس في المقعد الامامي ، وترفع له بعينيها المخيفتين .. ويذوب هو وراء منبره شعرا اقتصاديا ..

واجبته اخيرا : انا اعلم انها تعبث .. تعبث ، ولا شيء اخر .. وهي من ذلك الطراز الذي يختبىء وراء العبث والسخرية . انها تتعذب هي كذلك برغبة وحشية خفية .. رغبة ان تلقى مالم تلقه حتى الان ..

ـ انت تتمنى ان يكون الامر كذلك ... ومع ذلك من يدري .. الا انني احب ان القي اليك باعتقادي .. هذه الفتاة يامجيد كنز لمن يمتلكها . ولكن هل اسعدت الكنوز دائما اصحابها ..

ـ كفى ..! انك ضد المرأة .. ضد الحب والجمال منذ القديم ، فلا قيمة لارائك ...

وصمت برهة ، أحسست خلالها بالله . ولكنه ماعتم ان قال :

ـ هذا حق .. ولكن ليس مثلي احد يتمنى من صميم وجوده ان يصادف يوما جمالا انسانيا حقيقيا .. لاشيء في حياتنا ، حتى ماهو مادي منها ، الوجه والجسم واليد الصغيرة .. الا وهو بدون واقع ، بدون صدق .. انت تعرف كيف هجرت ..

وقاطعته بصرامة ، خيفة عليه ، انني اعرف ، اعرف فاجعته القديمة التي كررها على مسمعي عشرات المرات . ان هذا الانسان الضخم، كصخرة مكدسة منذ الازل الى جانبي ، يئن من ثقب في صميمه . كما تئن الصخرة من فجوة ينبوع ، تعجب لمائه القليل كيف استطاع ان يحطم جلمودها ويثقب معدنها .. ولكن حتى هذا الينبوع قد جف ، وبقي قناة صماء مظلمة تصفر فيها الريح بدون جدوى .

قال حسين :

ـ هيا بنا .. طال وقوفنا هذه الليلة ، لااريد ان انبه اعين « السعيد » علينا ..

وانطلقنا نحو المدينة . كنا مطرقين صامتين ، نسابق ظلينا على الرصيف .. وما ان ابتعدنا قليلا عن الجامعة حتى لمحنا شبحا يتقدم منا .. وقف الى جانبنا :

ـ مجيد اعطني العريضة بسرعة .. سر بطريقك هيا .. غدا سأراك !.

*

انهم يهولون ، وكذلك فانا اهول معهم . ولكن الارض التي تلعقها نعالي لن تقشط عنها غبار الاحذية القذرة ، وتكشف عن صخرها الاملس البارد ، بالسهولة التي كنت احلم بها وانا بعد طفل في العقيدة ، طفل في التطلع الى الغبار ، كيف هو مكدس ، وكيف سوف اعدمه من ارض الغبار .

لقد كنت احسب السير في العجاج الرملي الذي يخترق شوارع المدينة فيوحد بين قذارة جوفها وقذارة سمائها ... والناس في هذه الساعات تعشى حواسهم ، فينكفئون على انفسهم ! انهم يعبثون قليلا بالغبار المتراكم حول مشاعرهم . هناك يحلو الضجر .. .فهو جرعة افيون تحيل ثقل العجاج الى حلم مرهق ، يشعر معه الانسان انه مذنب بدون جريرة ما . انه مسؤول عن .. لاشيء . ومع ذلك فهذا « اللاشيء» موجود بطريقة ما . وهو مصدر عذاب وسعادة من نوع دنيء وحشي .

وحملقت عيناي ثانية في غرفتي العارية .. لقد تحولت احجارها الى كتل من الصقيع والسكون المعتق واللامبالاة المحزنة . ولم اتابع كتابة الرسالة الى اهلي في « دير الزور » بسوريا .. لن احدثهم عن عجاج احمر ، مثقل بالغبار القاتل . يعرفونه . وكذلك يعرفون ساعات الانتظار الشاقة خلف الابواب والنوافذ الموصدة باحكام ، يتشممون رائحة الهواء النقي بلا جدوى .

ولكنني اود لو اقول لهم ، فيما لو وصلت رسالتي اليهم ، ان العجاج في بغداد قد تحول الى مادة اخرى ، انه لايأتينا من هناك عبر القفار والصحاري الموحشة من الانسان والعشب والحب اليتيم ، ولكنه ينبعث كئيبا أملس من حنايا الازقة ههنا . لقد بدأ يتصاعد العجاج من اقبية المدينة ياسلمى . وانه يطفو على هوائنا ، ويسبح بحشرات المجاري فوق انفاسنا .

وانا هنا ، موصد علي ، يسجنني عجاج اخذ لونه يعمق في الحجرة المغبرة . أتلمس الضياء والهواء ، وأبقى مسجي على سريري اعانق ظل سجاني بدون حب ، بدون تلامس حقيقي ، الا تلامس الاختناق والضغط المسعور .

لقد كان علي ياسلمى الا اراك الا قليلا بعد خروجي من السجن في عهد القزم التركي ذاك « نوري السعيد » . كنت اشفق ان تصيبك عدوى جنوني .. ان احدا في الواقع لم يكن يستطيع انذاك ان يبرر عاصفتي السمراء ، هذه النظرة الموحشة الغائرة الى قعر العالم .. لماذا انا محتد دائما ، أصمت برهات طويلة ، أنفجر بدون سبب حقيقي ، أختفي اياما من الجامعة ، أحيا الليل الطويل متسكعا على ضفاف دجلة ، على ضفاف بغداد المنسابة في حذر الاستسلام المخيف .. كنت اقف بعض اللحظات ارنو الى رموز بغداد وهي اضواء قليلة تنعكس على جبين دجلة ـ اواه ليتها تحس ما معنى ان ينعكس ضوؤها على الجبين ، جبين النهر الخالد ـ اقف واحملق في هذا المائع بدون شكل او حجم ، بدون وجه سوى انه انسياب اخرس طويل معتق ، كأنه افعوان من نوع أسطوري ، ليس له اول ولا اخر ، ولكنه يزحف بنعومته الثقيلة على بلاط بدون زمان .

أكاد أحس ان نظراتي الى الكتل الجبارة من القوى المنسابة في حضن هذا النهر ، القوي النائمة المتلصلصة الزاحفة في الاعماق ، نظراتي هذه تلهب البرودة هنا ، تجمد الحركة الكبرى الصامتة في القطرات المتزحلقة على اديم بعضها بعضا .. اني اتحداك يانهر ، أتحداك باسم أعماقك المظلمة الشهيدة تحت اثقال مياهك الرمادية ، أتحداك باسم الاضواء القليلة المترجرجة على جبينك ، أتحدى نعومتك وانسيابك البض المثلوج ..

وادور في الحي المتلوي . اطرق الباب في اوج الليل على حسين .. اوقظه ، يرتدي عباءته السوداء ، يسير الى جانبي شبه نائم ..

ـ الا تحس يا حسين صمت هذه المدينة ..

ـ انت عاشق ! ما اخبارك مع سلمى ..

ـ انها تشبه بغداد .. تتجمع كلها في غموضها وعنفها المقنع حول نهر يشق صميمها وتزحف فيه اسرار الوجود كلها ..

واصمت برهة ثم اوقفه تحت مصباح ، احدج هدلات لحمه حول فمه المطبق من الازل :

ـ حسين اريد .. اريد شيئا غير المنشورات ..

ـ صبرا يا أخي .. اتدري لقد وزعت ، انت وحدك ، اكثر من نصف الكمية .. فمالك تلح هكذا علي ان اعطيك .. اعطيك .. ماذا بك ، اتريد ان تحتكر العمل كله . كنا نحسب انك قد افرغت طاقتك في سوريا قبل ان تأتي الى هنا !

ـ لو تدري ياحسين .. ان احدا من جيلنا الموحش لايعذبه وجوده بقدر ما يعذبه عدمه ، عدمه الازرق في صميمه ، ولهذا فلن تنضب طاقته، العدم لايفرغ ابدا .. اواه لكم تثيرني هذه المدينة المشقوقة الصميم بمزيد بارد مخيف ينقل ازل الارض ويزحف به بدون معنى .. بدون قوة تصعد الى الضفاف .

ـ قريبا تهطل الامطار في الاعالي ، ويهدر النهر ، وتصعد المياه .. تصعد، تغرق الضفاف، تغمر الشوارع والازقة.. وتغسل نصف الانسان هنا.

ـ هل سيعم الطوفان .؟

ـ الطوفان .. الطوفان .. آه ، هذه هي الكلمة الرائعة .!

واجيبه وانا اهرول بعيدا عنه عائدا الى وحدتي :

ـ عجاج اخر من المياه .. عجاج اخر ، اليس كذلك ، أواه من يمكنه ان يكون البطل عندئذ : من يطير في العجاج ، او من يسبح في الطوفان.!

مازلت اتلعثم بالنظرة ولحركة المستريبة من يدي ، من جسدي كله وانا اجلس على الكرسي الوحيد المتخلع في غرفتي ، وأتأمل هذه التي احلولك ثوبها ، وانهدل هدبها بحمل الغبار والحلم :

ـ ماذا جاء بك يا سلمى .. اخترقت العجاج،كيف اهتديت الى بيتي..

ـ انك تتحدث دون ان تدري عن كل الاجزاء ، كل التفاصيل التي تخص حياتك .. ومن يريد ان يعرفها فليتنبه الى حواشي احاديثك .. هوامشها .. عندما تدور .. تدور حول مالا تستطيع ان تعبر عنه ، فتلقي بكل الظلال المبعثرة الاخرى حول هذا الشيء المفقود .. .

واختصرت الغرفة واشياءها وزواياها العارية بنظرة مهمومة ثم قضت كيسا ورقيا في يدها :

ـ اليس لديك طاولة اخرى .. حسنا دعني ! سأنقل هذه الكتب الى الارض ، لابأس على ماأعتقد ، احمل معي ..

نقلنا طاولة الكتب الوسخة . مسحت الغبار ، بحثت عن جريدة . القتها بعناية كغطاء جديد مترف .. ثم راحت تنسق الطعام فوقها :

ـ جئتك بعشاء لهذه الليلة .. طبخت هذا بيدي .. ذق ! انه طعام بغدادي اصلي ..

رحين لم أحر جوابا ، تناولت قطعة من الخبز وحمّلتها من لحم السمكة الكبيرة التي أتت بها وقالت ضاحكة :

ـ سأكل معك .. لاتخش هذه السمكة الغريبة .. انها من دجلة .. الا تشبه سمك « فراتك » في دير الزور .. لابد ان كل الاسماك متشابهة ولكن الصيادين يختلفون .. اليس كذلك ..

ـ او بالاحرى للطباخون ..!

وضحكت بجذالة متبشرة بهذه النكتة . فلعلني بدأت افارق جمودي قليلا . انها تدبر امرا .. تتبعني بنظراتها الحانية المبهمة .. حنووابهام يغمران طلعتها ، كما عرفتها دائما . وهي منذ تلك الامسية عندما حاولت حمايتي أنا وصديقي من جواسيس « السعيد » فرجعت على درب الجامعة واختطفت مني العريضة ، منذ تلك المفاجأة المذهلة وهي لاتبرح تزداد حنوا وابهاما كلما جمعتنا صدفة لقاء عابر .. الى ان اضطررت اخيرا الى الاختفاء بعيدا عن متناول السلطات الشعوبية .. وقد مضى علي شهران دون ان اخرج إلى النور .. وأغلقت الجامعة وحل تموز .. وكان علي ان اعود الى سوريا ، ولكني بقيت احيا في ظلام بغداد .. اغوص في غرفة منفردة في احد الاحياء الفاصة بالناس . اعرق واتبلد ، وافكر ، والتقي بحسين والاخرين .. بينما يختنق النور والهواء في الخارج بالعجاج الاصفر الكثيف ..

وتطلعت الى الوجه الانثوي الطافح ثقة عربيدة ، كان لونه الشمس والخمر ، معتقين برغبة الاستشهاد في نزوة واحدة ، كاملة الحياة والموت.

وانا الذي حلمت بلحظات لالقي اليها بحمل الصمت في فؤادي ، لم ادر ماذا انتقي لها من كلماتي الخطيرة ، وقد جمعتنا هذه الغرفة ، وتوقف العالم هناك عى العتبة بزمانه وضجته وعجاجه

واستطعت اخيرا ان اقذفها بسؤالي العتيق :

ـ لماذا فعلت ذلك ..

ـ ماذا فعلت ؟

ـ اعني عندما ابيت ان تضمي امضاءك الى العريضة ، ثم رجعت وانذرتنا برجال السعيد .. وها انت كذلك تقتحمين علي مخبأي ههنا ..

ـ ربما .. ربما كنت افعل ذلك حبا بالمغامرة .. بعض الناس ، الا تعرف ذلك ، مولعون بالطريف والغريب .. ولعلي أنا منهم !.

وضربت بيدي على الطاولة وقمت دون وعي:

ـ ليس عملنا هواية يا آنسة .. وان كنت ممن يبحثون عن المغامرات فلقد ضللت هدفك تماما ..

ودون ان يطرف لها هدب تمتمت بهدوء شل غضبتي كلها :

ـ لم أقصد هذا .. وانما .. لا لن اقول الان شيئا ، وانما احب ان انبهك الى انه قد توجد كذلك مهمات اخرى لها خطورة مهمتك

ـ انا اشك ان لك فعلا مهمة ما من هذا النوع .. لقد كنت تعبثين بالشباب ، تلك كانت لذتك .. انت الهية ، الهية مفسدة تضللين الشباب عن اهدافهم الحقيقية .

وقامت الى بعض الكتب تقلبها ، وقالت دون ان ترفع الي بعينيها

ـ حدثني عن جميلة بوحيرد .. ألم تكن جميلة جذابة ، ذات كبرياء انثوي ، الم تحب ، الم تكن لها نزوات الفتاة .. الم تدخل معركة الموت والحياة من اجل رجل ...

وقاطعتها وقد احتدم غضبي :

ـ لا ياآنسة .. لا ابدا ! مثل هذه المرأة لن يمتلكها رجل ابدا .. هي وامثالها يصنعن قضية .. انها فوق العواطف ، وان كانت هي الحب كله !

ومن خلال ابتسامة رائعة تقول بعذوبة شيقة :

ـ لا تغضب هكذا يا مجيد .. كل ما احاوله هو ان اوضح لنفسي بعض نوازعي الداخلية . انا ما زلت اشك .. اشك في قدرة اي انسان ان يكون ما يريد حقا. فهل يكفي مثلا ان اسلك سلوك البطل حتى اكون البطل .. حتى اكون جميلة،جميلة بوحيرد ..

وقلت وكأني اوجه هذا القول الى نفسي اولا :

ـ ينبغي ان تحيي الثورة لكي تكوني الثورة ، لكي تكوني البطل بدون ادعاء ولا زيف .. ارتبطي بالثورة ، كوني داخل الجحيم ذاته لكي تقدري بعد قيمة الاله والشيطان .. ان ارتباطك بالثورة هو الذي يبرر لك حتى اخطاءك . واما وانت خارجها ، فلا يحق ان يكون لك ثمة قلق او شك واضطراب بشأن البطولة الحقيقية او غيرها .. اننا في النار ، ومن هناك لنا صرخاتنا ..

واجابت وهي تمسح انامله بمنديلها :

ـ ومع ذلك فيجب ان اعترف باني اذا كنت سارتبط يوما ما بالثورة فلا بد ان يجذبني اليها اولا شيء حي.. انسان ما .. هذه مشكلتي يا صاحبي فانا لا استطيع ان اؤمن بحقيقة مجردة ، فان كنت اريد الثورة فلا بد لي من ثائرا اعرفها بواسطته ..

ـ لا تقولي هذا يا آنسة سلمى .. انك تبحثين عن رجل .. عن رجل وكفى !

ـ قد يكون هذا صحيحا ، بل انه صحيح فعلا ، ولكن لا بد ان يكون هذا الرجل هو الثورة ذاتها ..

قالت ذاك وهي تودعني خارجة من الغرفة على ان تأتي لي بطعام في اليوم التالي..

ـ سأراك كل مساء .. سأبدأ بهذا الواجب الصغير .. ان اطعم شابا صغيرا ثوريا ... وبعد سنرى ..! والى اللقاء.!

*

كان حسين يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، بينما راحت سلمى تشغل نفسها بجمع بعض الاوراق .. قالت :

ـ انك تكتب بشكل رديء جدا يا مجيد .. والرفاق لا بد لهم من قاموس خاص لحل رموز حروفك .. ان اوامرك هذه يجب الا تكتب كذلك

بخط ثوري .. أهذا ضروري ؟

ولكن الصمت ما زال مخيما على الغرفة ... وتوقف حسين فجأة :

ـ يا مجيد ! أتعتقد ان ثورة الشعب يجب ان يحققها الجيش دائما ؟

وضرب مجيد المنضدة بقبضته مرة اخرى :

ـ اننا نفعل فوق طاقتنا ... تظاهرات ومناشير واجتماعات سرية ..

ـ وكذلك يفعل الشيوعيون ..

قالت ذلك سلمى بلهجة لا مبالية ، فانقذف مجيد نحوها صائحا :

ـ ومن اين علمت ذلك .. اهو استاذ الاقتصاد الاشقر .. اهو استاذ الاقتصاد الشاعري الماركسي دعاك الى احدى هذه الاجتماعات ...

فاجابت مصطنعة الهدوء :

ـ هون عليك يا صاحبي .. ينبغي ان نقدر كذلك منذ الان قـــوى الاخرين .. اننا نهيء لثورة ، ولكن هناك من ينتظر الثورة ليستولي على مكاسبها كلها

وتدخل حسين قائلا بثقة عجيبة :

ـ لا يهمنا هذا... الشعب معنا ، عندما نحقق له ثورته ، سيعـرف حينئذ من هم ابطاله الحقيقيون ..

وسمع حينئذ قرع متأن على الباب ، وفتح حسين ، فدخل شاب شديد السمرة والنحولة ، تقدح عيناه بنار دائمة ، القى نظرة عى الجميع ثـم تطلع لحظة الى مجيد ، تلاقت عيناهما ، وهز له الاول برأسه هزة خفيفة.

التفت مجيد الى الجميع وقال بلهجة رهيبة :

ـ حسنا ايها السادة .. لقد حلت ساعة الصفر .. سنتلاقى غدا مع ضباطنا امام قصور الطغاة .

ولم تفهم سلمى جيدا ماذا يعني هذا الكلام المشحون بالرموز فقالت :

ـ هل هي مظاهرة جديدة ؟!

وابتسم مجيد :

ـ نعم ولا .. انها المظاهرة الاخيرة ..

٢ ـ الطوفان

عيناك يا سلمى غاب من النور الاسود ، وأنا افجع من ضاع في غـاب عينين ، مدينة ... أحساس متوحد مصلوب عليه العالم ..

اعتقد انني عنيف متوحش ، وعيناي تحلان الوحشة حيثما وقعتا علـى وجه او قلب او شارع تتكرم فيه كائنات .. من نوع غريب اسطوري . لا تخشي شيئا يا حبيبتي .. لا تعيدي اليك ذكرى تلك الظهيرة . لقد طافت بغداد فجأة .. خرج الاسود والثعالب معا من اوكار المدينة المخيفة .

كان هناك قتل . كان هناك اعداء لنا يموتون شر ميتة ، لقد بدأالقتل.. لا تهولي الامر ياسلمى.. اه .. انلمحين في ذلك بداية الطوفان ..

وصاح بي ، من اعماق دوامتي ، رفيقي الذي كان يسير الى جانبي على الضفـة ...

ـ حذار انك تخوض في الوحول .. الفذارة !.

انه شاعر ، يتآمر دائما ضد الحقيقة .. انه طفل عجيب ، يلهي على العالم من طفولته الثرة ويحسب انه يكسب الوجود اديما جديدا حالما تتجسد نشوته في قصيدة عذبة حالمة . ولكنه مع ذلك كان يكتشف الرعب بطريقة ما ، فتراه ينبهني الى وحول الضفة ، الى القذارة ..

ورحت اتحدث بصوت عال

ـ سلمى يا « عاكف » نحس معنا الرعب ، بل نحسه افجع منا ، انهـا تصرخ بي دائما ... ماذا فعلنا لكي نسيطر على الطوفان .. سلمى بائسه لا ندرك فوننا .. نحن ابطال الشعب . لقد أزلنا عدوه الاعظم ، لم يبق الا ان يهتدي الى طريقه الايجابية الجديدة ..

وسمعت الشاعر يرقص الى جانبي :

ـ نحن بسطاء .. بسطاء ، ابرياء ، نسكب الفجر على جبـين الارض فتلتمع الصحاري بكنوز انوارنا الضائعة ..

ـ ولماذا تضيع انوارنا يا صاحبي ؟

ـ لانها انوار .. انوار .. يا للحقيقة العارية ، انها ستظل عذراء رغم عقول الفلاسفة كلهم من سقراط الى سارتر ..

وتمتمت بحذر مأخوذ :

ـ لقد اصبحت مخاوف سلمى حقيقة . بدأ الرعب يكشف عن وجهه المشوه من بين الزوايا والظلال .. رأت اليوم وجها جديداً للطوفان .. كانت تسير مع مظاهرة كبرى لتحية الزعيم الاوحد . فسمعت صوتا ينادي بحياة عبد الناصر قائد الوحدة ، والمظاهرة كلها تردد النداء ، ثم يصرخ صوت اخر : لا زعيم الا كريم ! فاذا بالمظاهرة تردد الشعار .

وصاح الشاعر :

ـ ولكننا نحن صنعنا الثورة ، نحن قدنا رؤوسنا الى الحتف ، نحـن هببنا باعصارنا وبددنا سحب العجاج فوق مدينتنا ومن رئات شعبنا ..

ـ ولكن حل يا صاحبي الطوفان محل العجاج !..

ـ الشعب يعرفنا .. فلا خوف...

ـ ونحن لا نعرفه بعد .. فلنخف اذن !

ـ انهم يضللونه ، انهم يتاجرون بسذاجته ، يزينون له الجحيم باوهام من النعيم .. انهم اعداؤه الحقيقيون

ـ كفاك سذاجة يا هذا ... ينبغي ان نتهم انفسنا ، نحن ابطـــال ! صحيح . نحن صنعنا الثورة ! نهن هدمنا صرح الطغيان ، ولكن نحن لـم نعمل على استمرار الثورة فتحولت الى فوضى ، الى طوفان ، نحن كشفنا

صدر عن دار بيروت للطباعة والنشر

القومية العربية	ترجمة عبد اللطيف شراره	٤٠٠
فن الشعر طبعة جديدة	للدكتور احسان عباس	٣٥٠
فن القصة طبعة جديدة	للدكتور محمد نجم	٢٠٠
فن المقالة طبعة جديدة	للدكتور محمد نجم	٢٠٠
غاندي والمرأة	ترجمة بهيج شعبان	٢٥٠
السباحة والغطس	تأليف الدكتور زهير الشربجي	٥٠٠
البيت الكبير	ترجمة بهيج شعبان	٢٥٠
معنى الثورة طبعة جديدة	للدكتور جورج حنا	١٥٠

عن الينابيع ، فجرنا الصخور والقلوب ، ولكننا لم نحفر المجرى الواحد الحقيقي ففاضت كنوز الينابيع والقلوب وتحولت الى طوفان ، يطغى على كل شيء ، يتبعثر ، وينتحر تدريجيا ، يبدد قواه ، يذيب حجمه العظيم ، ويصير اخيرا الى وحول ومستنقعات ، نغرق فيها ببطء العفن .. نحن أصحابه !

ونظر الي الشاعر مشدوها :

ـ ماذا ؟ أتريد من الابطال ان يصبحوا فلاحين .. ان يقسموا الارض ويزرعوا الطين !..

ـ الابطال يا صديقي ليسوا هم الهدامين فحسب ، ولكنهم البناؤون.. والا استحالوا الى قتلة مجرمين .

ودعت الشاعر . دخل الى الجريدة . تابعت طريقي . لن اكتب هذه الليلة حرفا واحدا . لن اوزع اوراقا وكلمات من اعلى . يقول رئيس التحرير ان علينا ان نوجه الشعب ، ان نكتب الاف الصفحات . هناك معركة توجيه بيننا وبين المضللين . انهم يغرقون السوق بالصحف ، بالاف الكتب والمجلات ، يوزعونها مجانا يأتون بها من جميع عواصم الشر ما وراء الحدود . هناك عقول وءوم ونظم واموال والات جبارة تعمل الى جانبهم. ونحن لا نملك .. الا بطولة البراءة !

هذه الكمة .. هل سأسخر منها يوما قريبا . اواه يا الهي ، كيف يمكن ان تلغى شخصية شعب بكامله ، كيف يمكن ان يخدر ، ان ينتزع منه وجدانه وعقله ، ان يهجّن ، يتهم بهويته .. وتشنق حريته فوق رأسه !

*

بلغت غرفتي . كانت سلمى تلهث من نشيج طويل :

ـ اتيت اخيرا .. هذا فظيع . لن استطيع ان احدثك .. اواه يا ربي!

قل لي اين تخبأ هؤلاء السفاحون .. انهم يهود ، نازيون ، تتر .. لقد رأيتهم بعيني .. الطلاب.. رفاق حسين

ـ ماذا حدث .. ماذا حدث .. ماذا فعلوا بحسين ، قولي هيا ..

ـ سحلوه يا مجيد ، قالوا عنه انه جاسوس ناصري ، تألبوا عليه من كل جانب في اروقة الجامعة ربطوا عنقه بالحبل وجروه الى الخارج ، الى الشوارع .. والناس ، الناس الطيبون ، الذين طالما احببت وجوههم السمراء وبسماتهم العذبة ... هؤلاء من تسميهم الشعب ، كانوا يصفقون ويهزجون ويعدون وراء القتيل ..

وتهاويت على السرير .. لقد بدأ الطوفان حقا .. بدأنا نغوص والوحول ستبتلع فجرنا الوليد .

وقامت الي شرسة مجنونة ، تهزني بعنف منعاظم :

ـ اخبرني ماذا ستفعلون ، ايها الابطال .. هيا ناد عبد الناصر ، ناد الرفاق من الجمهورية ، من كل انحاء الوطن العربي.. الواحد .. الواحد هاها!انهم سيفترسوننا واحدا بعد واحد،وفي كل مرة ستكون وليمة عظيمة للشعب . لم يعودا يفرقون بيننا وبين اعوان العهد البائد .. انها مصيدة كبيرة .. لقد اصبحنا خونة ، لاننا ننادي بالوحدة .. اصبحنا مجرمين ، لاننا نقول ليس هناك عراقي وسوري ومصري .. ليس هناك الا زعيم لعرب واحد .. ليس للمركبة الا قائد واحد .. قل لي كيف سنقابل القتلة .. ينبغي ان نرد القتل بالقتل .. لم يبق الا طريق الدم ، طريق الدم .. اواه .. اواه ياحبيبي ماذا فعل بنا الوحوش ؟..

ـ لن نكون وحوشا مثلهم ، لن ننفذ لهم كامل خطتهم . لقد رموا بنا الى الغاب ولكننا سنضيء غابهم بانسانيتنا . لن يدفعونا الى القتل ،نحن اعددنا الثورة ولكننا لم نهيء للمجازر ، ستكون لنا ثورتنا العربية دائما وستكون لهم مجزرتهم الحمراء ..

ـ انه طوفان احمر ياحبيبي ونحن سنغرق فيه شئنا ام ابينا ..

ـ طوفان نعم .. ولكننا سنستعمله لخير هذه الارض ، لابد من تطهير طويـــل ...

ـ أيكون التطهير من نصيبنا وحدنا .!

ـ سنتألم اليوم وحدنا ، ولكن غدا سيتألم الشعب معنا .

لم اكن واثقا مما اقول في البداية . ولكن استرسالي على هـــذه النبرة ، جعل لكلماتي صدى عميقا في نفسي . وبعد ان كنت أكـــاد انفجر حنقا وارتباكا عاودني صبري وهدوئي . اننا في قلب الكارثـــة فلماذا نفر من مواجهتها ؟

وذات ليلة ، وكانت سلمي قد رجعت الى عادتها السابقة ، تأتي لـــي بالطعام كل مساء الى مخبأي الجديد في احد الاحياء الشعبية ، رأت عندي رفيقين لاتعرفهما جيدا وان سبق ان التقت بأحدهما من قديـــم قبل الثورة ، في مثل هذه المناسبة .

كان احدهما يعبث بقلم على ورقة امامه . اتأمله للمرة الالف وكانـــي اراه جديدا . انه شخصية عملاقة ضمن قالب صغير . يمزق حـــدوده ليتنبأ بنظرات صاعقة ، بكلمات حادة جازمة كحد الموسى .. وراح يتابع دون ان ينظر طويلا الى سلمى :

ـ ماذا قلت يامجيد .. حسنا ! لقد كانت عقيدتنا دائما هي ان يحرر كل قطر عربي ذاته بذاته من الحكم الرجعي والاستعمار .. ولكن مـــاذا نقول عن وحدة النضال العربي . نحن اليوم في القعر .. معزولـــون، وحيدون في هذه الواحة الموحشة ، وحولنا القفر والصحاري تفصلنا عن رفاقنا .. انهم ينسوننا .. نحن لوحدنا ، لوحدنا نواجه اكبر عمليـــة مكـر تحالف فيها جميع الشياطين ، شياطين الارض ، ضدنا ..

وتدخلت سلمي فجأة بنبرة حادة مريعة :

ـ لـماذا تطلبون المساعدات دائما .. لقد انتظرتم في الثورة الماضيـــة حتى قام الجيش بمغامرته الاولى ، دون ان يكون لكم اعدادكم الكامل .. فغرقنا بالفوضى ، وضاعت معالم الثورة كأنها لم تكن في يوم من الايام .. واليوم تنتظرون ثورة اخرى من قبل الجيش او انقاذا من وراء الصحاري. حسنا ايها الاصدقاء .. ابشركم : لقد قامت الثورة في الموصل .. وهذا جهاز الراديو اتيت به لكي تستمعوا الى هذه المغامرة البطولية .. البطولية دون عقل .. دون روية .. ماذا تستطيعون ان تفعلوا لكي تؤيدوا ثـورة الموصل انتم هنا في بغداد .!

واستمعنا الى صوت الشواف ، يدوي في فضاء البلاد .. وتمتـــم عبد القادر ، هذه الشخصية العملاقة المحشورة في قالب صغير نحيف :

ـ هذا هو الجنون بعينه .. ولكنه الطريق الوحيد لانقاذ البلاد ... ينبغي الا نتردد ابدا ، فلنعمل شيئا هنا . ينبغي ان نتحرك بغـــداد بسرعة .. والا ضاعت فرصتهم الاخيرة .. علينا ان ندعم ابطـــال الشبـــاب ..

وكان هناك في زاوية بعيدة عن مصباح الطاولة يجلس « فيصل » .. انه عملاق كبير ، يسبح وجهه في موجة دائمة من الطيبة والمرح البريء. لم يتكلم شيئا منذ زمن . يستمع الينا ندور في امكنتنا مع اصداء الصوت الثائر من الشمال ، و ارتفع صوته الجهوري بعد قليل :

ـ كنا ننتظر مثل هذه الوثبة ، ولكننا لم نعرف عنها شيئا ، متى واين وكيف .. وها نحن نفاجأ .. هذه النزوة الجبارة سائرة نحو الفنـــاء

قريبا .. وستنقلب مصيدة لنا .. ولكل الابطال ، انها مناسبة لتدميرنا الى الابد فلنحـــاذر ..

وطرق الباب شاب اخر ، اقتحم الغرفة صائحا دون ان يتمهل حتـى يرى الوجوه الجامدة المتعلقة بشفتيه :

ـ هيا .. ماذا تفعلون هنا .. الشباب في غليان مريع .. ينتظـرون قراركم .. بغداد فارغة ، بغداد تنتظر ، ستثور مع من يثور ، ستصفق للمنتصر .. الطواغيت تقهقروا الى جحورهم .. ولكن هذا لن يدوم. ان اذاعة بغداد تخلق الرعب والبلبلة في نفوس قادة الجيش والشعب انهـا تنذر وتتوعد ، تشن حرب دعاية مريعة . الناس حول المذياع في كـــل مكان .. لابد من حركة صغيرة اولا ثم تعم بغداد بسرعة النار في الهشيم. لنحتل الشوارع الرئيسية ، لنخرج من بيوتنا ، هدفنا اولا دار الاذاعة .. لابد من قرار سريع .. هيا لاتضيعوا الوقت ..

وصاحت سلمى :

ـ الليلة سيتقرر مصير البلاد لامة طويل ..

وتمتم عبد القـادر :

ـ المظاهرة ستكون انتحارا ساذجا ان لم تتحرك الجماهير ..

واجبتـــه :

ـ الجماهير تنتظر قائدا مقداما .. علينا ان نفعل كل مابوسعنا .. وان كنا موقنين باننا نسير الى حتفنا بظلفنا ..

ونظر الي العملاق فيصل وهو يهم بالخروج :

ـ لقد اتخذت قراري .. لم تكن انتصارات الشعوب نتيجة تفكيـــر بارد في قوى الدفاع وقوى العدو .. اننا نتيح لانفسنا الان فرصة ان نعرف من نحن فعلا . نحن لانحب الموت ، ولكننا ندرك تماما ما قيمـــة الحياة بدون موت حقيقي .

واتمت سلمى قائلة :

ـ كنا نتناقش قبل قليل في عزلتنا .. ان البطل معزول ، ولو كـــان بين جيش من الابطال يحيطون به من كل جانب .. البطل معناه اليأس من الاخرين ، من كل القوى الا قوته هو .. ان عبد الناصر والرفـــاق الاخرين وراء الصحاري ينتظرون بطولتنا الخاصة كما فعلوا هم مـــن قبل في دمشق .. وفي القاهرة .. علينا ان نعرف من نحن حقا .. هذه فرصتنـــا ...

وقفنا جميعا ، لم نقل شيئا ، كان علينا ان نتجه نحو الباب ، وان ننغمر في ظلام الشوارع الموحشة .. وان نملأبغداد الموحشة المقفرة .

٣ ـ أنياب الآلهـه

لم يكن يغريك ياحبيبتي مايغري الصبايا في مثل سنك .. لقـــد كان المساء أبلج الجبين ، وكذلك احاطوا بك من كل جانب ، وكذلك نظرت الى بقية الضوء على جبين السماء . ولكنهم انتهروك فلقد كنت رافعـــة الرأس ، بينما كان الاخرون يقنعون وجوههم بعتمة نصف الظل ، يكومون رؤوسهم بين اكتافهم ، ينظرون الى الارض .

لقد خدعنا في الماضي منك كبرياء العزة ، والنظرة الشزراء ، ولفتة الكتف المتعالية في زوايا الطلاب ، والبسمة الغاضبة ، وقد شقت عنى بياضها الوان رغباتهم السوداء . ماكنت عابثة ، ولكنك تطلعت الى اعمق فسخرت من كل شيء موجود . من معاني حياتنا اليومية ، ومن برنامـــج امالنا الزاحفة ، ومن تطلع ذليل نحو مثل لانعرفه . كنت تبحثين عنك . وكنا نبحث عنـــا ..

وكان لكل منا درب من السطح ، من جانب ، من زاوية مسروقه مـــن نور الشمس . ونهرب من الفضيحة . نتكيء على صرخاتنا الصغيرة ، نكبت فيها روح الالم الحقيقي . كنا جبناء دون الالم الحقيقي ، واعظم من ان نرقص في حلبات القرح الفارغة .

وانت تدورين بعيونك ، غابة النور الاسود ، بين اشباحنا ، فلا تثبـت على جسد قائم .. كنا نتهاوى .. ولا بد ان الحب الذي ادعاه بعضنا ، النضال الذي تجمل به بعضنا ، الثورية التي تأججت من نداءاتنا ، مـن شعاراتنا ، ومن لهبة عارمة في زوابعنا الطفولية ، لم تكن اكثر من مناسبة للامل .. وانت عرفت كيف تكتشفين ، في العديد منا ، جرحنا المستور ، هذا النزيف نحو داخل ..

هيهات ياسلمى ان نحقق البطل ، ونحن على هذا القدر من الثقـــة بانني بطل ، وبانه بطـــل ..

كان اعصار الغضب ، الحنق، كانت الغابة السوداء من الضوء الاسود تلتمع في جوهر العيون الصارخة عندما سالوك :

ـ أهـــذا خطيبـــك .؟

ـ نعـــم .. هـــذا بطـــلي .!

وجمدت نظراتك علي . كنت أتكيء على قيودي . كان القبو معتمـــا . وانفاس رجال بلا وجوه تقذر الهواء وسمعت قلبي وحده يقدم ايقاعـــا خافتا لهـــذا الصمت .

دعي عنك هذه النظرات ياسلمى . انني مازلت اتكيء على قيودي .

وتأرجح في المسافة الضوئية بيننا ذلك الطاغية الطويل النحيل ،وتقدم مني ، كان عودا أجوف ، دودة طويلة تصل بين السقف والارض .

ـ يامجيد .. عثرنا عليها اخيرا ..

وصاحت هي من هناك ، من الضوء الاسود في عينيها :

ـ وماذا في ذلك .. لن تأخذوا منه كلمة واحدة ..

وقبض عليها طاغوتان ، دفعها الطويل من شعرها مسافة قدمين اواكثر. علقها . اسقطها فجأة . لم يقس عليها بعد . رفسها الى الارض ، انكبت على وجهها . جلس على ظهرها . كان يضغط نهودها بالارض ، بالحجـــر البارد . ادارها . ما زالت العيون تشع بالضوء الاسود .

اتجه نحوي ، تعلق فوقي ، وراح يهتز بفجاجة ودبق .. دودة :

ـ ستتكلم .. ستتكلم .. اين رجولتك ، أتحب تعذيب النساء ...

وسمعت لهجة قاصفة من هناك ،من البقعة من الحجر التي تكومت فوقها :

ـ لم اعد امرأة ..نحن سجناء جميعا وكفى .!

وقامت وقفة واحدة ، واندفعت الي ، حنت عينيها علي ..

قالت هامسة :

ـ مجيد .. لم يقبضوا علي . انا استسلمت لهم ، جئت لارى الرجال .. كيف هم الرجال الصامدون ، اذا ما عذبت نساؤهم امامهم !!

ورفعها احدهم من شعرها ثانية ، وقذف بها الى الزاويـــة المقـــابلة لي ، وسمعت ارتطام اللحم بالحجر والظلمة ..

وعندما اعادوني ، لم يرجعوني الى زفراتي الاصلية المفردة ، بـــل حشرت مع اخرين في زنزانة اكبر . وما ان اعتادت عيوني ظلمة المكـــان حتى عرفت وجهين احاطا بي ، عبد القادر وفيصل .. وكـــان هنـــاك شبح ثالث قد اتكأ براسه على الحائط ويبدو انه كان نائما ، انه عاكف .

انهم بارعون ، هؤلاء الذين درسوا فلسفة التعذيب على اساطين اعداء البشرية .. في الشمال ، في البلاد الباردة ، حيث حنطت القلوب فـــي الثلوج الابدية . لن اكون لوحدي ، سيعيش رجال اخرون تعذيبي طيلة هذه الليلة ، لقد دخلت مسرحية الامنا فصلا جديدا ، فلم لا يكون الاخرون

قرب عيني ، لصق انفاسي ، يحاورونني ، يقتصحونني عند ذاتي .

ولكن يبدو ان المعركة كانت محتدمة من قبل قدومي .. راح عبد القادر يهمس جبين الشاعر قائلا بلهجة لم ادرك انها ساخرة مرضية الا متأخرا :

ـ حسنا يا صاح ، لا تبتئس هكذا ، لا تجعلهم يشعرون انك مريض حقا .. انهم يتربصون لنا، يتابعون شقاءنا ، يحصون علينا كل آهة جديدة .. هذا اوان التحدي الاكبر . اما كنت تحسن ظنا بالانسانية ؟ نحن اطفال ! نحن ابرياء بسطاء ..! نريد الحرية لشعبنا ، فهل لهذه الدعوة يشقوننا ، يعذبوننا ، يشحذون انيابهم على عظامنا .

ويتمتم الشاعر من وهدته :

ـ شعبنا عظيم .. لن يتركهم يشوهون حريتنا . نحن ادانتهم الكبرى ..

ورفع رأسه واتجه الينا :

ـ آه .. لم اكن اعلم انهم انو بك يامجيد انت الاخر ..

ولكنه تابع ما كان يريد أن يقوله دون ان يعبأ بي كثيرا :

ـ أتعلمون ياأصحابي ؟ لقد ادركت اخيرا انه بقدر ماتكون مبادىءالانسان بسيطة حقيقية بقدر ما تقوم عقبات العالم كلها دونها .. ان يتحرر شعب ، ان يتوحد شعب ، ان يقيم العدالة بين افراده .. ما ابسط هذه الافكار ..

ويصيح عبد القادر مقاطعا :

ـ ولكن لماذا تحققت هذه الاهداف البسيطة دون تلك العقبات في مصر وسوريا ..

ويجيب فيصل من صدره الضخم :

ـ لقد كانت لهم عقباتهم هناك كذلك ..

ويتابع عبد القادر صرخته :

ـ ولكن لماذا هنا .. هنا بالذات في العراق .. تقوم كل الشرور في وجهنا ؟...

وقمت من مكاني وقد اكتشفت لنفسي تتمة حقيقتي لهذه الليلة :

ـ هذا لان العراق كان دائما بالنسبة للامة العربية عقدة الحياة أو الموت .. فيه حرينها الكبرى وعقبتها الكبرى .. هنا النصفية الكاملة لكلا الطرفين معا .. محك لامكانية الانبعاث لدى الامة ، وفضاء نهائي على الشرور المزمنة المحيقة بالامة .. كان على عرب الاسلام الاولين ان يخلصوا العراق من الفرس لكي تقوم دولتهم فعلا ، وحين سقطت بغداد بايدي الشعوبيين من حكام بني العباس انهارت وحدة الامة ، وحين غمر التتر وجه بغداد العربي انتهت حضارة اخرى للعرب بكاملها ... وهذه هي التجربة الثانية .. العراق يقوم ثانية بدوره .. فما هي قوى الانبعاث ، ما حقيقتها لدى جيل الوحدة والحرية .. هذا هو المحك الذي يجابهها اليوم في انتكاسات العراق .. في بحرانه وعذابه وتارجحه المضني الشاق !.. ان الامة تتحدى بنا مصيرها .

وببشر غامر رشيق اندفعت الكلمات من فم عاكف وحركاته البريئة الطفولية :

ـ الم اقل لكم . الى اقل اننا بسطاء .. ولذلك تشرق علينا الحقيقة مباشرة . مجيد يتكلم بروحنا جميعا . .

ولكني قلت وانا اجلس القرفصاء على الارض العاديه :

ـ بقي امر ايها الرفاق .. لقد انوا بسلمى هذه الليلة ..

وارتمى كل واحد في مكانه . وساد السكون فجاة . وعادت الى الغبو وحشته الاولى ، منذ ان كان تجويفا مدلهما في اعماق التراب الكثيف .

*

قبض عاكف على قضبان النافذة . مشدودا كوتر اخرس . وظل فيصل مستندا بظهره الكبير الى الحائط . كان يضغط شيئا ما في عروقه يكاد ينفجر به وبالعالم حوله . وكان عبد القادر قابضا على راسه بكلتا يديه ، يحاول ان يشل دماغه عن التفكير . واما مجيد فقد بقي هادئا ، لا يستطيع الجلوس ، ولكن استمر شاخصا الى نقطة ما في الفضاء المظلم حولهم ، يحاول ان يتابع الصدى ان يتسلق نبراته المتقطعة بحركة معاكسة لترداده ، وان يتحد بينبوع مصدره .

كان ذاك صراخا مريعا ، يتعالى من شق في هذه الارض ، ليس بعيدا عن مكمن الرجال . وكانذلك يتصاعد من لحم سلمى ، فلقد اصبح لكل عرق فيها صرخة خاصة ذات نبرة بالم جديد .

وسمعت فيصل يردد ثانية :

ـ سلمى تصمد .. سلمى تصمد ، لو وقفوا عند هذا .. الحد . لو اكتفوا بتعذيب جسدها .. ونحن نصمد كذلك ..

سلمى تصمد لو.!

سلمى تصمد لو.!

ونحن نصمد معها كذلك .. لو !

واندفع عبد القادر اليه فجاة مقربا وجهه من لهاثه وراح يهزه من منكبيه :

ـ فيصل .. نحن نصمد ، نحن الذين نصمد وحدنا .. واما هي .

ـ التتمة على الصفحة ١٠٨ ـ

مجموعة تراث العرب

لسان العرب مجموعة كاملة ٦٥ جزءا	٢٦٠٠٠
معجم البلدان مجموعة كاملة ٢٠ جزءا	٨٠٠٠
الطبقات الكبرى مجموعة كاملة ٣٢ جزءا	٨٠٠٠
رسائل اخوان الصفاء مجموعة كاملة ١٢ جزءا	٣٦٠٠
البخلاء للجاحظ	٦٠٠
مقامات الحريري	٧٥٠
مصارع العشاق جزءان	١٢٠٠
تاريخ الائمة الاثني عشر	٢٥٠
مجمع البحرين للبازجي	٦٠٠
تاريخ ولاة مصر للكندي	٧٥٠
مشارق انوار القلوب	٥٠٠
رحلة ابن جبير	٠٠٠

دار صادر ـ دار بيروت

سـلمى

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٤٠ ـ

واما هي فلقد استشهدت ، استشهدت وانتهت ..

واندلعت صرخة اخرى شيطانية تخر لها آلهة الوحشة ، وحشة الارض والعالم قبل الإنسان ، قبل سوط انسان ولحم انسان تحت السوط .

تشبث بي عاكف ، بحث عن عيني ، وقف هناك :

ـ صديقي .. وددت لواكون مكانك .. ولكنني ساقول لك كيف تبدو لي هذه الازمة .. ازمتنا جميعا .. سلمى تتحول تدريجيا يا صديقي من مجرد انسان عادي عابر ، الى رمز .. ارى من خلاله الامة بكاملها .. انها تحتمل كل ذنوب اعدائها لكي تدفع بنا وبامثالنا الى خلق مصيرها الحقيقي .. سلمى لم تعد حبيبتك وحدها ، لم تعد فتاة سمراء مناضلة من اعماق العراق البائس .. سلمى تصنع لنا معجزتنا .. سـلمى ..

وصرخ عبد ألقادر :

ـ اصمت ايها الثرثار .. دعنا نصغي بصمت اليها وحدها ...

وكانت آهتها .. تتجاوب اصداؤها في انحاء القبو كله،لم تكن تضعف، ولكنها تشتد وتتضح . ليست عذابا . انها تحد ، تحد كامل ، للوحوش كل الوحوش ، انى اختباوا في انحاء الارض .. الوحوش الذين يحفرون التراب تحت الانسان ، يحيلون ارضه كلها الى قبور مستترة ببراقع الديانات الحديثة ، المبادىء الحمراء .. هذا التهجين المسعور لكل الحقائق البسيطة في ضمائر البشرية .

ودوت الصرخة والصرخة والصرخة . والرجال محشورون وغضبهم في جحر تحت التراب الكثيف الرطب .

وراحت كلمات رتيبة عارية من اي معنى ، تنصب من فم عبد القادر وهو مطرق الى الارض :

ـ كفى .. كفى .. كفى . يضربون البسالة المكبلة .. كفى بحق الابالسة . يحاصرون الجسد النحيل الخمري .. كفى .. كفى .! ما هذه السعادة الشيطانية التي تغمر الجلادين وقت الذبح ..

ويقول فيصل :

ـ الجسد هو الذي يصيح .. واما هي .. سلمى فآلامها بدون صوت ..

والتفت الي :

ـ مجيد هل تعتقد بانها في حاجة الينا هذه الساعة .. هل يمكن ان تغفر لنا فيما بعد ..

ـ اوه .. هذا وقت لا غفران فيه ولا اله له .. وقت قفر من القيم .. من الاخرين . الا هذه الصرخة المندلعة من اعماق الاقبية كلسان جديد ، يتحدث بلغةلاقاموس لها .. سلمى الان لا شيء ..

واندلق الشاعر بعاطفة لزجة :

ـ ماذا تقول .! اجننت ، سلمى لا شيء .؟

ـ نعم ايها الاحمق ..! انها لا شيء .. هل تستطيع انت مثلا ان تقول عنها اية صفة الان ، لفظة ، اية قيمة مما اعتاد انساننا الحقير ببسالة ، الحالم بجرأة اللص يسترق السعادات التافهة من كوى السماء المطبقة علية كقبة من الرصاص المبرقش بلمعات باردة .. هي كل نوافذ حلمه الجبان ..

وغلفت السذاجة الواهمة سيل كلماته :

ـ اتعني انها انسان جديد .. اتكون هي العالم المجهول الذي نناضل من اجل .. آه .. احسب انها عذراء مسيحية اخرى .. انها كنيسة التضحية الكاملة .. ترى كيف سيكون اتباعها .. من هم العبيد الجدد للديانة الجديدة . .

وقبل ان أجيب هدأ الصوت قليلا ، ثم سمعنا خبط اقدام على حجر الممر الضيق . فتح الباب . امتدت يد . جذبتني من قميصي . جررت في الممرات .

قذفت اليد بي الى وسط غرفة . نظرت حولي ، فاذا بي محاصر من الطواغيت وقد تحلقوا حولي ، واسقطوا الضوء على وجهي اينما حولت وجهي ولكنني كنت ارى اشباح قاماتهم ، وبريق عيونهم ، ولمعان اسنان بعضهم .. تقدم مني احدهم ، اطل علي بوجه دائري معمى الملامح. ولكن كانت له شفتان غليظتان تتحركان باستمرار ولما وعيت على كلامه كان قد قطع شاوا عظيما في هذره :

ـ سنشوه وجهها اتسمع ، سنشوه وجهها ، حاول ان تتصور اللحم الاحمر الممزق المكوم في جهات ، السائل من جهات اخرى .. في وجه زوجتك .. زوجة المستقبل .. واذا لم ترجع عن عنادك انت واصحابك سوف نحيلها الى .. انت تعلم طبعا ، لدينا رجال كثر هنا بدون نساء ..

ـ وماذا تريدون منا ؟

ـ ان تعترفوا بانكم حاولتم قتل الزعيم .. وانكم مدفوعون من قبل الجمهورية العربية المتحدة ..

ـ حسنا .! واذا فعلنا هل سيصدقكم الشعب ، هل سيصدقكم العالم الذي يتداول اخبار وحشيتكم كأساطير القرون المظلمة ..

ـ نحن نعلم ماذا نفعل .. نحن شيوعيون ، نحن مثقفون .. نحن ستقود العالم .. ولو اقتضى الامر ان يموت نصف العالم ... نحن علماء ستزرع البشر ونولد المجتمعات كما نريد .. الافراد لا قيمة لهم .. العالم .. العالم هو هدفنا ..

وصحت به :

ـ اذن ثق يا صديقي انكم قبل ان تخرجوا الى العالم ستنالون حتفكم هنا في الصحراء .. وبيد سمراء عربية .. الامة العربية هي التي قدر لها ان تفضح زيف العالم .. وانتم اكبر مهرجي الزيف .. لقد جرتكم حماقتكم الى ارضنا هذه .. وهنا تحت شمسنا اللاهبة ستتبخر الجمودية التي زحفتم بها من الشمال .. وبعد فالعالم سيعرف ان العرب قد كشفوا قناعكم الاخير ، فاذا بكم ورثة الاستعمار بافظع ادوات الاستعمار .. القتل الجماعي .. الابادة القومية الكاملة ...

وصاح صوت :

ـ لا تقربوه . ستنال حبيبته نصيبه ..

وصاح صوت اخر :

ـ لاخر مرة قل انكم قتلتم باسم عبد الناصر ..

ـ عبد الناصر لا يتآمر .. عبد الناصر ونحن لا نتامر ضد الحشرات .. اننا نسحقها بنعالنا سحقا . ليس القتل من شريعتنا ايها الجلادون .. ان زعيمكم مقتول كل لحظة ، وانتم ميتون كل لحظة .. ولا حاجة للابطال ان يدنسوا سيوفهم بدمائكم السوداء ..

ـ سنشوه وجه حبيبتك .. سنهرق (الشرف العربي) .. سنلقي بها الى الرجال ..

ـ افعلوا بجسد سلمى ما تشاؤون .. واما سلمى الحقيقية فقد تحررت من اغلالكم .. خرجت من حمأة دمائكم السوداء .. انها الان تسكن في كل قلب عربي .. فلن تنالوا منها شيئا بعد اليوم ..

وصاح صوت :

ـ انت مثالي اجوف .. نحن نعذب جسد حبيبتك ، نشوه وجه حبيبتك ، نستبيح عرض حبيبتك .. اتفهم .. أتفهم ..

ـ نعم انني افهم .. افهم امرا واحد .. انكم لا تفعلون ذلك بها الا لان سلمى لم تعد بين ايديكم ..

*

حذار يا صديقي يا مجيد ، انك تحتك بالاحجار الكالحة اكثر مما ينبغي . انها تمتص منك حرارتك . ستصبح حجرا عما قريب . والفجر لن يطلع بعد هذا المساء ، انه معلق في اعلى القبة الرصاصية . لن يهبط على الارض . لقدعم الدنس الارض . والهوام بدون قوام وشكل، نفرت من الثقوب ، وملأت اديم البساتين والشوارع . وعششت في لحى الرجال وشواربهم . وفيصل العملاق بالقرب منك ما زال يزحم الجدار بمنكبيه العريضين دون جدوى. والشاعر ذاهل كعادته . انه يبني جناحا من طين هذه المرة . وعبد القادر يظل ينتفض كقلب حي دائما ولو في جوف هذا الصدر .. القبو الاسود الصقيعي.

وسلمى لم تعد تتابع الصرخات . لقد تلاشى صدى اخر صرخاتها من زمن طويل . ان الليل يضم الان آفاق الصدى . ينقله الى جوانب القبة الرصاصية . حيث سيظل هناك يرن يرن .. ثم يتهاوى ثانية الى الارض ، مواطن الهه الحقيقي .

وعندما راح يشرق مطلع النور الرمادي على كوات السجن ، كان فيصل يهز الشاعر :

ـ عاكف .. عاكف .. ماذا عراك .. قم يا اخي .. اغلق عينيك ... يا الله .. ما هذه الصفرة .

وعندما فتح السجان باب الزنزانة خرج ركب من نوع غريب . كان هناك في المقدمة عملاق ، يرتدي قميصا ممزقا عن نصف صدره وظهره . وكان وراءه شابان يوقعان على حجر الممر خطوات متمهلة عميقة ..

كان على ذراعي العملاق مسجى الشاب النحيل ..

كان الشاعر على يدي العملاق .

كانت عيون الطواغيت خلف الجدران السميكة تتسلح بالظلمة والحجر. ومع ذلك كانت تشهد ركب الشاعر الميت مع طلائع النور الرمادي في الفجر .

كان الشاعر على يدي العملاق .. ووهج النور الرمادي يطبق على الممرات الضيقة شيئا فشيئا .

دمشق — مطاع صفدي

مجموعة ديوان العرب

ديوان المتنبي	١٠٠٠
ديوان ابن الفارض	٥٠٠
ديوان عبيد بن الابرص	٤٠٠
ديوان امرىء القيس	٤٠٠
ديوان عنترة	٥٠٠
ديوان عبيد الله من قيس الرقيات	٦٠٠
شرح المعلقات السبع	٣٠٠
سقط الزند لابي العلاء	٦٠٠
ديوان ابي فراس الحمداني	٧٠٠
ديوان عامر بن الطفيل	٣٥٠
ديوان الخنساء	٣٥٠

دار صادر ـ دار بيروت